مظاهر أسلوبية في نظم عبد القاهر

عامر فائل محمد بلحاف

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية العلوم والآداب بشرورة، جامعة نجران، المملكة العربية السعودية

الملخص

تنهض الدراسات الأسلوبية الحديثة اليوم على عددٍ من الأسس منها: التفريق بين اللغة والكلام، وتوظيف المعاني النحوية، وتتبع خروج اللغة عن المعيار، وأثر السياق في إيضاح المعنى. ويحاول هذا البحث تعقّب هذه الأسس في تراث علّامة العربية عبد القاهر الجرجاني من خلال نظريته (النظم)؛ إذ افترض الباحث أنّ عبد القاهر -ومنذ قرون خلت- قد التفتَ إلى هذه الأسس، وراح يشرحها للناس ويفسرها لهم في كتابه دلائل الإعجاز. لذا حاول البحث رصد هذه الأسس، فخصّص المظهر الأول لتفريقه بين اللغة والكلام، وعنايته بالإنتاج الفردي للمبدع، والأثر النفسي في إبداعه. وجعل المظهر الثاني لمعاني النحو التي لم تعد عنده قاصرة على الإعراب. ورصد المظهر الثالث مصطلحات خروج اللغة عن المعيار لديه، ومنها: معنى المعنى، والغرابة، والعدول. وختم المظهر الرابع بأثر السياق في إيضاح المعنى.

مقدمة

يحمل هذا البحث عنوان (**مظاهر أسلوبية في نظم عبد القاهر**)، وهو يفترض وجود عددٍ من المظاهر الأسلوبية في نظرية النظم، مظاهر كان الجرجاني بحديثه عنها سابقاً لبعض النظرات الأسلوبية التي جاءت بها الدراسات الحديثة اليوم، و أهم هذه المظاهر: الفرق بين اللغة والكلام، والمعاني النحوية، وخروج اللغة عن المعيار، والسياق.

وانسجاماً مع عنوان البحث، فقد قُسِّم **على مظاهر أربعة**، مسبوقة **بتوطئةٍ** موجزة كان الهدف منها بيان خصائص النظم العامة، وكيف نظر إليه الدارسون وتناولوه بالبحث بعدّه نظرية لسانية لا بلاغية نقدية، كما هدفت أيضاً إلى ذكر أهم نقاط التلاقي بينها وبين اللسانيات الحديثة، وعنت في نهايتها بإثبات مفهوم (النظم) كنظير لمفهوم (الأسلوب).

خُصّص **المظهر الأول** للحديث عن (**اللغة والكلام**)؛ فذكر تفريق سوسير بينهما، وتحدث عن: مراعاة الكلام للناحية الفردية، وعنايته بالبعد النفسي الاجتماعي، وكل ما يُذكر كان يُقابل بما ورد عند عبد القاهر في النظم لتبيُّن أوجه التقارب والتباعد بين الفكرين. ودرس **المظهر الثاني** (**معاني النحو**) فكان فيه كلامٌ على الأسلوب و النحو، وإثبات أنّ معاني النحو عند عبد القاهر ليست متعلقةً بالإعراب وحده، وكيف أفادت اللسانيات الحديثة – ومنها الأسلوبية – من معاني النحو هذه بمسميات أخرى، منها الصيغة النحوية. أمّا **المظهر الثالث** فحمل عنوان (**خروج اللغة عن المعيار**)، وهو مظهرٌ خاصٌّ بدراسة ما يطلق عليه اليوم (الانحراف أو الانزياح) في الدراسة الأسلوبية، وقد وجد البحث أنّ لعبد القاهر مصطلحاتٍ في خروج اللغة عن معيارها، منها: معنى المعنى، والغرابة، والعدول، فضرب لها أمثلة من نظمه، وقارن ما ذُكر بآراء الأسلوبيين. وخصّص **المظهر الرابع لـ (السياق)** بنوعيه اللغوي وغير اللغوي، بيد أنّ تفصيله في اللغوي كان أكثر، فكان فيه حديث عن تعريفه، وعناية المدارس اللسانية الحديثة به، وسبق عبد القاهر في تجليته.

توطئة

شغل الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) الناس قديماً وحديثاً، وبقي فكره الذي قدّمه في كتابه دلائل الإعجاز حيّاً تتناقله الأجيال على مرّ العصور وتوالي الأيام،

وبقيت نظريته التي اصطلح عليها بـ (النظم) خير شاهد على فكرٍ حيّ لا يموت؛ حيث تناولها كثير من الباحثين بالدرس بلاغياً ونقديّاً ولسانيّاً، فخرجوا بنتائج تؤكد صلاحيتها لأن تكون نظرية لسانية في المقام الأول. ومن الباحثين المعاصرين من يرى أنّ هذه **النظرية بحاجةٍ إلى مزيدٍ من البحث الدقيق**؛ منهم سمير شريف استيتية الذي قال: "تعد نظرية النظم التي أرسى قواعدها عبد القاهر الجرجاني معلماً بارزاً من معالم التفكير العربي في النقد والبلاغة، وقد أُجريت أبحاث ودراسات كثيرة حول هذه النظرية وبعض جوانبها اللغوية والنقدية والبلاغية، ومع ذلك مازالت هذه النظرية بحاجة إلى مزيد من الأبحاث التي تأتي على خفاياها، وتستكنه أبعادها، وتفجر ما فيها من طاقة كامنة؛ فيمكن بذلك أن تكون أساساً لنظرية عربية شاملة في علم اللغة ـ وبخاصة في التراكيب والدلالة ـ وفي النقد والبلاغة"[1].

إنّ هذه النظرية ـ بحقّ ـ تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة والتنقيب في أبعادها وخفاياها؛ لأنّ فكر عبد القاهر فيها غالباً ما يفاجئ الباحثين بأمور لم تدر في خلدهم؛ ذلك أنّه دأب على معالجة اللغة بطرق تختلف عمّا اعتاده العلماء والدارسون في عصره وقبله وبعده، وأبلغ دليل على ذلك الكم الكبير من الدراسات التي دارت حول جهده هذا.

والنظم ـ كنظرية لسانية ـ **تقوم كذلك على معرفة مواطن الجمال واختيارها**، وهي "دعوة صارخة إلى دراسة النحو على منهاج جديد، يقوم على الحس والذوق وحسن التخيّر، بدلاً من ذلك المنهاج التقليدي الذي يوجه العناية إلى الإعراب، وبيان الأوجه الممكنة من الناحية الإعرابية التي قد تفسد المعنى وتشوهه"[2].

وما من شكٍّ في أنّ ذلك المنهاج التقليدي الذي اتبعه النحاة قد خدم النحو خدمة جليلة، لا مجال للتقليل من شأنها أو نكرانها، بل هي خدمة أكسبته تقعيداً وضبطاً يستلزمه العلم في أي زمان أو مكان، بيد أنّ صرح النحو الكبير هذا كان يمكن أن يفيد من أفكار عبد القاهر هذه.

وثمة من يرى أنّ **هذه النظرية قد أسهمت أيضاً في إيضاح المعنى الوظيفي داخل التركيب**، وأشارت منذ زمن إلى السياق، ومن هؤلاء تمام حسان الذي قال: "ولقد كانت مبادرة العلامة عبد القاهر ـ رحمه الله ـ بدراسة النظم وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق

من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية قيمةً في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب"[3].

وللنظم أهمية بالغة في الدراسة اللغوية، أهمية أفاد منها اللغويون الغربيون، ولم يلتفت إليها اللغويون العرب التفاتة جادة إلى الآن، وممّا يعزز هذا القول أنّ **أفكار عبدالقاهر في النظم قد التقت مع أفكار المحدثين من علماء اللسانيات في الغرب**، وأهم أوجه هذا التلاقي: اللغة أساس الفكر، واستدعاء الفكرة للفظ، والمعاني هي الأصل، واللفظ رمزٌ للفكرة [4].

يمثل **الاتجاه الأسلوبي** أحد الاتجاهات اللسانية المعاصرة، شق طريقه أولاً من العلوم اللسانية [5] ـ وبخاصة علم اللغة ـ ثمّ وجد لنفسه مرتعاً خصباً في الدراسات الأدبية والنقدية. **ويفترض هذا البحث أنّ هناك أوجهاً من التشابه قد تصل إلى حدّ التطابق بين فكر عبدالقاهر في النظم وعددٍ من المبادئ التي تأسست عليها الدراسة الأسلوبية**، وقبل المضي قدماً في هذا الافتراض يجدر بنا أولاً أن نتتبع ـ بإيجاز ـ المراد بـ (الأسلوب) عند عبد القاهر، وهل هو ذاته النظم؟

قال عبد القاهر: "واعلم أنّ الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه: أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض أسلوباً – **والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه** – فيعمد شاعرٌ آخر إلى ذلك الأسلوب، فيجيء به في شعره، فيشبَّه بمن يقطع من أديمه نعلاً على مثال نعل قد قطعها صاحبها، فيقال: قد احتذى على مثاله"[6]. وذكر محمد عبد المطلب عن النظم ما نصّه: "وعبد القاهر الجرجاني عندما يتناول مفهوم الأسلوب لا ينفصل عن مفهومه للنظم، بل إنّه يطابق بينهما، من حيث كانا يمثلان تنوعاً لغويّاً فرديّاً يصدر عن وعي واختيار، ومن حيث إمكانية هذه التنوعات في أن تصنع نسقاً وترتيباً يعتمد على إمكانات النحو؛ لأنّ توالي الألفاظ في النطق على أي وجه لا يصنع نسقاً أبداً، وإنّما يصنعه قصد المبدع إلى التأليفات الفنية بأسلوبها التي يميزها"[7].

إنّ مقصود عبد القاهر في الأسلوب هو الطريقة الخاصة في التعبير التي تصدر عن وعي واختيار، وتميّز بين أديبٍ وآخر بالاعتماد على إمكانات النحو، وباختلاف الأسلوب قد تختلف الدلالات. وستحاول الصفحات التالية أن تتتبع جملةً من المظاهر الأسلوبية في نظم عبد القاهر.

المظهر الأول: اللغة والكلام

أولاً – بين القواعد والاستعمال

يرى المهتمون في ميدان الدراسة الأسلوبية أنّ **التفريق بين اللغة والكلام فكرةٌ بالغة الأهمية في نشوء علم الأسلوب**[8]، ويرجعون هذا التفريق إلى رائد علم اللغة الحديث سوسير (Ferdinand de Saussure) الذي رأى في اللغة نظاماً اجتماعيّاً مستقلاً عن الفرد، بينما رأى في الكلام التحقيق العيني الفردي؛ ومعنى هذا أنّ اللغة تقنين اجتماعي أو مجموعة قوانين في حين أنّ الكلام فعلٌ فردي[9].

وحاول منذر عياشي في كتابه (مقالات في الأسلوبية) بالاعتماد على تفريق سوسير هذا استنتاج عدد من الملحوظات من هذين المفهومين، فذكر ما يلي:

- تعريف اللغة بأنّها نظام؛ وهذا يعني أنّها تقوم على نوع من التنسيق بين الصور السمعية والمفاهيم.
- اللغة سلبية وغير فاعلة، وامتلاكها يتم باستخدام الإمكانات الذهنية أو الذاكرة.
- الكلام هو الاستعمال الفعلي للنظام اللغوي.
- كل نشاط مرتبط باللغة يعد من خصائص الكلام.
- الكلام ظاهرة فردية[10].

وإذا ما عدنا إلى دلائل الإعجاز، وحاولنا تتبع هذا التمييز الأسلوبيّ الشهير بين المفهومين، فسنجد أنّ **عبد القاهر يجعل التفريق بين اللغة والكلام مفتتحاً لعرض نظريته في النظم، بل هي أول قضية يثيرها؛** فالكلام في رأيه: تعلق الألفاظ بعضها ببعض عن طريق العلاقات النحوية[11]، وهذه العلاقات النحوية هي التي تسلك الكل في سياق، وهو يرى أنّ النحو موجود في منظوم كلام العرب ومنثوره، والعلم به مشترك بين العام والخاص، ومادام الأمر كذلك فما الذي يجعل هذا الكلام يختلف عن ذاك؟ ولماذا نصف كلاماً بأنّه فصيح مبيّن معجز، وكلاماً آخر بأنّه عارٍ من الإعجاز عاطل عن البيان؟ وهو يعزز هذا الرأي بأنّ القرآن في ذاته كلام يتكون من ألفاظ تنظمها

قواعد النحو، ومعان تنشأ من هذا التعلق بين الألفاظ، فما الذي جعل القرآن معجزاً مع أنّه لم ينزل على العرب بألفاظ غير الألفاظ أو من غير النحو؟ فاللغة – إذن – شيء يشترك فيه العام والخاص، أمّا الكلام ففيه عنصر فردي يجعله يختلف عن كلام إنسان آخر، فليس الفضل في علم بألفاظ اللغة أو قواعدها، إنّما هو في طريقة الاختيار والتصرف[12].

إنّ رؤية عبد القاهر هذه صريحةٌ في أمور هي:

- اللغة ألفاظ وقواعد تشترك فيها مستويات متعددة (العام والخاص).
- الكلام عنصرٌ فردي، وهو مقياس الجودة.
- يعتمد الكلام على الاختيار والتصرف.

وهذه الأمور الثلاثة تعدّ اليوم أسساً للأسلوبيات الحديثة.

وقد ساق إبراهيم خليل دليلاً على تفريق عبد القاهر بين اللغة والكلام، فقال: "وقد فرّق الجرجاني بين اللغة والكلام في موضع آخر، فنحن حين ننسب الكلام إلى قائله، الشعر مثلاً، لا ننسبه من حيث هو (كلم) وأوضاع لغوية، ولكن من حيثُ توخي فيه النظم، ومعنى ذلك أنّ الكلمات التي يتألف منها القول الشعري هي كلمات ليست من خلق الشاعر وابتكاره، وإنّما من ابتكار واضعي اللغة المتواضعين على الكلم، وإنّما الذي يجعلنا ننسب القول الشعري للشاعر هو وضعه لهذه الألفاظ في نظم (سياق) من اختراعه الخاص، كما أنّ قواعد النحو ومعانيه ليست من وضع الشاعر، وإنّما تصرفه بهذه الضوابط هو الذي يجعلنا نميّز بين شعر هذا الشاعر أو ذاك"[13].

لقد آمن عبد القاهر هنا بأهمية الضوابط اللغوية ودور قواعدها وأصولها في النتاج الأدبي للمبدع، بيد أنّه تفطّن إلى أنّ الأثر الأدبي لن يتحقق إلا بعمليات اختيار وتصرّف يقوم بها المبدع، فكأنّه يصرّح بأنّ اللغة شيء والكلام شيء آخر، في إشارة جليّة إلى وضوح صورة الأسلوب في ذهنه. وهذا الطرح سيقودنا إلى جزئية أخرى تلي (القواعد والاستعمال)، وترتبط بالأخير – أي بالاستعمال – ارتباطاً وثيقاً، وهي: مراعاة الناحية الفردية.

ثانياً- هل راعى النظم الناحية الفردية؟

مضى القول في أنّ الأسلوبية تُعنى بالتنفيذ الفردي للغة، وتحرص على تتبع إنتاج الفرد، بل إنّ من الأسلوبيين من جعل هذا الأمر محوراً للدراسات الأسلوبية على نحو ما نرى عند جيرو (Pierre Guiraud) الذي قال: "إنّ الأسلوب مصمم كمنتوج من منتوجات الفرد"(14)، كما يؤثر معظم الدارسين في هذا المجال إرجاع الأسلوبية إلى التنفيذ الفردي للغة، وهو مجال الكلام(15). فهل راعى النظم هذا الأمر؟

قال عبد القاهر: "واعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزيّة في نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق، وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، ولا تقضي له بالحِذق والأستاذية وسعة الذرع وشدة المنة حتى تستوفي القطعة، وتأتي على عدة أبيات ... ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين ضربة، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحِذق، وتشهد له بفضل المنة وطول الباع"(16). إنّ **قول عبد القاهر** هذا يشي لنا بأنه **يولي الناحية الفردية عناية في نظمه، ويحرص على تتبع إنتاج الفرد، وإخضاع لغته لأنواع من التحليلات التي تعين الناقد في مجال التفسير**. وقد غدت هذه الفكرة التي طرحها الجرجاني قبل قرون الاتجاه السائد في علم الأسلوب اليوم.

ثالثاً- البعد النفسي الاجتماعي

الأسلوبية النفسية الاجتماعية نمطٌ من الأسلوبيات يُعنى بإنتاج المبدع من خلال دراسة شخصيته، وقد اشتُهر هذا النمط من الأسلوبيات سنة 1959م على يد الباحث الفرنسي موريير (Henri Morier)، حين "طرح نظريته التي حاول من خلالها استكشاف ما أسماه (رؤية المؤلف الخاصة للعالم) من خلال أسلوبه، واكتشاف هذه الرؤية يقوم على أنّ هناك خمسة تيارات كبرى تتحرك داخل (الأنا العميقة)، وأنّ هذه التيارات ذات تعبيرات مختلفة، والتيارات الخمسة الكبرى هي: القوة، والإيقاع، والرغبة، والحكم، والتلاحم. وهي الأنماط التي تشكل نظام (الذات الداخلية)"(17).

وقد تجاوز هذا النوع من الدراسة مجال الاختصاص (العلوم النفسية) ليصل إلى

علم اللغة والأسلوبيات، فحاول الأسلوبيون الإفادة منه في دراسة اللغة، فخرجوا بنتيجة مفادها: "أنّ اللغة لها وجهان: أحدهما: عاطفي وجداني، وثانيهما: فكري عقلي، ويختلف تركيز هذين الوجهين بحسب القدرة الفطرية للمتكلم، وبحسب محيطه الاجتماعي والوضع الذي يكون فيه"(18). من جهة ثانية رأى صلاح فضل أنّ "هناك اتجاهاً يربط بقوة بين علم الأسلوب وعلم النفس في وحدة عضوية، ومن أكبر دعاته الباحث الفرنسي (ماروزو) الذي يرى أنّ علم الأسلوب ينبغي أن يعتمد على تحليل الأوضاع المختلفة للنفس البشرية"(19).

وإذا ما حاولنا تتبّع هذا البعد لدى عبد القاهر في النظم فسنجد **إشارات دالة عليه** في مواضع عدة، نذكر منها:

1. "وأمّا نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنّك تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب **ترتيب المعاني في النفس** ..."(20).
2. "وإذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنّها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، **وأنّ العلم بمواقع المعاني في النفس علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق**"(21).
3. "وأن ليس إلا أن تعلم أنّ هذا التقديم، وهذا التنكير، أو هذا العطف، أو هذا الفصل حسنٌ، وأنّ له **موقعاً في النفس**، وحظاً من القبول"(22).

إذن، فالنظم عند عبد القاهر لا يتحقق إلا بترتيب المعاني في النفس؛ وبعبارة أخرى: **الأسلوب عنده يُعنى بالناحية النفسية**. وقد أشار إلى هذا البعد محققا كتاب الدلائل حين قالا في مقدمته: "تناول عبد القاهر الحذف والذكر والتعريف والتنكير، ووقف عند القصر، وناقش التقرير والاستفهام، ولكنه في هذه المسائل ـ وما إليها ـ كان يستعرض الشواهد ويحللها **في بعديها النفسي والاجتماعي**، ويرى المبدع والمتلقي، ويتتبع خيوط التأثير"(23).

على أنّه ينبغي التنويه هنا إلى أنّ رجاء عيد يرى أنّ الاتكاء على الناحية السيكلوجية، والاعتماد على نفسية المبدع في الدراسة الأسلوبية أمرٌ له محاذيره؛ لأنه قد يؤدي إلى

الانتقال من الموضوعية إلى الذاتية[24]، وحينها قد تفتقر الأحكام النقدية إلى الدقة والمصداقية. ولا خلاف معه في ذلك إذا أضحى البعد النفسي لمنتج النص هو الهدف وصار البحث عنه هو الغاية، أمّا إذا كان الاعتماد على هذا البعد جزءاً من منظومة متكاملة فالأمر فيه نظر؛ ذلك أنّ الأسلوب اختيارٌ فرديٌّ واعٍ، وحينها لا مناص من عدّ الناحية النفسية للمبدع أمراً له أهميته في ميدان الدراسة الأسلوبية.

المظهر الثاني: معاني النحو

تولي المدارس اللسانية الحديثة معاني النحو ـ أو الصيغة النحوية على حد تعبير بعضها ـ عناية بالغة، فمدرسة لندن اللغوية مثلاً ترى أنّ "اللغة توفر الإمكانات النحوية المستخدمة بطرق مختلفة متعددة، أكثر من كونها مستخدمة لوظيفة دلالية لكل واحدة"[25]، وتقول بيري (Margaret Berry): "لا أجد معنى يمكن أن تتوازن فيه هذه الوظائف المختلفة، الصيغة النحوية فقط هي الثابتة بمقابلتها مع المجموعات اللفظية المحدودة"[26].

وعبد القاهر الذي سبق هذه المدارس بقرون **أقام نظريته في النظم على منهج نحوي،** أُضيف إليه منهج بلاغي، واستطاع ـ بحسب رأي سعد مصلوح ـ أن "يصل إلى نظريته الأسلوبية التي عُرفت بـ (النظم) من خلال استخدامه النحو العربيّ التقليدي أساساً لتمييز الأساليب، وبذلك تمكّن من صياغة نظريته في حل قضية اللفظ والمعنى على أساس أسلوبيّ"[27]. ولن يسترسل البحث أكثر في هذا الحديث العام، بل سيحصره في علاقة هذه المعاني بالأسلوب، وذلك على النحو التالي:

أولاً- الأسلوب والنحو

يرى جيرو (Pierre Guiraud) أنْ لا أسلوب دون نحو، ولا نستطيع أن نثبت العكس، فنزعم أنّه لا وجود للنحو بلا أسلوب، ثم أوضح علاقة النحو بالأسلوب بعد ذلك في قوله: النحو يضبط لنا قوانين الكلام، بينما تتبع الأسلوبية وجوه التصرف به عند استعمال اللغة[28]. ويرى فريمان (D. C. Freema) **أنّه** من الممكن تحديد الحقل الذي تتحرك فيه الأسلوبية بثلاثة أنماط:

- الأسلوب باعتباره انحرافاً عن القاعدة.
- الأسلوب باعتباره تواتراً أو نوعاً من تكرار أنماط لغوية.
- الأسلوب باعتباره استغلالاً للإمكانات النحوية[29].

ويزعم البحث أنّ **النمط الثالث من هذه الأنماط هو الذي قامت عليه نظرية عبدالقاهر في النظم،** مع عدم إغفالها للنمطين الأول والثاني؛ فعبد القاهر يقول ويكرر في كتابه – بطريقة أو بأخرى – المقولة التالية: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها ..."[30]. وهو يقول في موضع آخر: "فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيّة وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزيّة، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[31].

إنّ عبد القاهر هنا يحاول تحويل القوانين النحوية المعيارية إلى وظائف معنوية تظهر من خلالها علاقات الكلم بعضها ببعض، ويسعى جاهداً إلى تبيّن الفروق بين أساليب مختلفة في الكلام قد تبدو من منظور النحو المعياري أنّها متساوية. وإذا كان النظم عند عبد القاهر (كلاماً) يُنسج من سلسلة من الألفاظ ، فإنّ هذه السلسلة اللفظية يجب أن تنسجم مع أصول علم النحو وقوانينه ومبادئه، وفق المناهج التي اختطها النحاة، ليكون (النظم) عنده مرتكزاً على توخي معاني النحو، ومعتمداً على معرفة مناهجه. وتقترن (معاني النحو) هذه في دلائل الإعجاز بفكرة التعلّق؛ تعلّق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض، ولهذا التعلّق ثلاث طرق هي:

- تعلق الاسم بالاسم ، كأن يكون خبراً عنه ، أو حالاً منه ، أو تابعاً له ...
- تعلق الاسم بالفعل ، كأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً .
- تعلق الحرف بهما .

وقد علّق حاتم الضامن على هذه المعاني بقوله: "هذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي معاني النحو وأحكامه، ويظهر منها أن الكلام لا يكون من جزء

واحد، وأنّه لا بدّ من مسند ومسند إليه، وهما ركنا الجملة الأساسيان، وأنّه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً، ولا من حرف واسم إلا في النداء. فالنظم عند عبد القاهر ليس سوى حكم من النحو نتوخاه"[32].

وإذا ما حاولنا أن نتلمس **العلاقة بين المعنيين النحوي والأسلوبي** فسنجد أنّ "المعنى النحوي: هو إحدى الوظائف المعنوية الدالة على وظيفة الكلمة في التركيب، وذلك كأن تعرف أنّ كلمة (جديدٌ) مثلاً في جملة: (الكتابُ جديدٌ) تؤدي وظيفة الإخبار ... والمعنى الأسلوبي: هو الدلالة التي لا تتضح في موقع الكلمة في الجملة وحدها، وإنّما من خلال النظر إليها كعامل مؤثر في الموضوع كله"[33]. فإذا علمنا ذلك، وعلمنا بعده أنّ المعاني النحوية تمثّل روابط جزئية، بينما تمثّل المعاني الأسلوبية روابط كلية[34]، اتضح لنا أمران:

- المعنى الأسلوبي أعم وأشمل من المعنى النحوي.
- المعنى النحوي طريقٌ للمعنى الأسلوبي.

فإذا أدركنا ذلك وصلنا إلى نتيجةٍ مفادها: أنّ التراكيب النحوية أولى بالدرس الأسلوبي من غيرها؛ ذلك "أنّ ما يقرره علم النحو من البدائل المتاحة أمام الأديب قدر غير قليل من التراكيب الصحيحة، وإنْ تكن متفاوتة الدرجة من حيث القبول، ويستطيع دارس الأسلوب أن يتناول تلك البدائل الصحيحة ويعرض لما يجده شائعاً منها لدى الأديب، ويبيّن مبلغ اقترابه أو ابتعاده من النمط المألوف في الاستعمال العام"[35].

وثمة سؤال مهم يحتاج إلى إجابة: هل معاني النحو عند عبد القاهر هي الإعراب فقط؟

ثانياً- معاني النحو ليست متعلقةً بالإعراب وحده

إنّ معاني النحو التي تحدث عنها عبد القاهر ليست الإعراب فقط، ليست قوانين مطلقة، أو بعبارة أخرى: **ليست تلك المعايير الثابتة**. يقول عبد القاهر: "ومن هنا لم يجز إذا عُدّت الوجوه التي تظهر بها المزيّة أن يعدّ فيها الإعراب، وذلك أنّ العلم بالإعراب مشتركٌ بين العرب كلهم، وليس ممّا يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالروية"[36]. ويقول في موضع

آخر قريب من الأول: "ومن العجب أنّا إذا نظرنا في الإعراب وجدنا التفاضل فيه محالاً؛ لأنّه لا يتصور أن يكون للرفع والنصب في كلام مزيّة عليهما في كلام آخر، وإنّما الذي يتصور أن يكون هاهنا كلامان قد وقع في إعرابهما خلل، ثمّ كان أحدُهما أكثر صواباً من الآخر، وكلامان قد استمر أحدهما على الصواب ولم يستمر الآخر، ولا يكون هذا تفاضلاً في الإعراب، ولكن تركاً له في شيء واستعمالاً له في آخر"(37).

إذن، فمعاني النحو هي ممّا يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية، وقد تحدث عنها الجرجاني "باعتبارها وسائل لفهم الأسلوب، لا باعتبارها هدفاً مقصوداً لذاته... **والحق أنّ الجرجاني تجاوز مرحلة النظر في أحكام النحو باعتبارها قوانين مجردة إلى مرحلة النظر في هذه الأحكام باعتبارها أدوات لتحليل النص الأدبي وفهم الأسلوب**، ومع ذلك فهو لم يرفض المصطلحات والمفاهيم النحوية، بل عدّها جميعاً أدوات ووسائل لتحليل الكلام وفهمه بصورة أفضل وأعمق"(38).

وعن معاني النحو هذه والفارق بينها وبين الإعراب قال محققا الكتاب: "فالنحو هاهنا يتحول إلى دراسة أسلوبية تعبيرية تكون أداة في الميدان الفني الأدبي، وكذلك في مجال الأداء العلمي الدقيق، وهذا فرعٌ من الدرس ليس كسائر ما يتلقى؛ لأنّه يسعى إلى تحليل الكلام نفسه، لا كما اعتاد القوم من مراجعة للقواعد وأمثلتها ومشكلاتها النظرية. إنّ هذه الطرائق النظرية أساسٌ لكل نحوي، إلا أنّها تغدو جافة تفتقد الحيوية إذا ما انفردت، ولم تكن المنطلق إلى تحليلات أشار إليها عبد القاهر بمصطلح (**معاني النحو**) التي تتطلب من الدارس فهماً متكاملاً للسياق ومعانيه، وربطاً للوظائف النحوية بالأغراض والأفكار. نحن نقول: "**إنّ الجرجاني وجّه إلى التحليل الداخلي للجملة والعبارة بديلاً عن التقسيم الشكلي الخارجي الإعرابي، ثمّ أضاف إلى هذا : ربط العمل النحوي بالبحث عن المعاني والسياقات تطبيقاً** ..."(39). إنّ معاني النحو هذه التي قدمها عبد القاهر تمثّل طريقاً جديدةً في البحث النحوي، كان من حقها أن تكون نظرية خاصة بالمباحث النحوية العربية، وكان بإمكانها أن تسبق بعض النظريات النحوية الحديثة، لو التفت إليها النحاة – ممّن أتوا بعد عصر عبد القاهر– وحاولوا دراستها وتطبيقها على الأبواب النحوية.

المظهر الثالث: خروج اللغة عن المعيار

يمثل خروج المبدع باللغة عن المألوف نمطاً أسلوبيّاً عنيت به الدراسات الأدبية والبلاغية منذ أقدم العصور وخصّته الأسلوبيات اليوم بمزيد عناية، حتى حلا لبعض الدارسين أن يجعل الأسلوب محصوراً بهذا الخروج، فماروزو (Jules Marouzeau) يعرّف الأسلوب بأنّه: "اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها، وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه"(40). وتودوروف (Tzvetan Todorov) ينظر إلى الأسلوب بأنّه "لحنٌ مبرر" (41)، كما درج كثير من الباحثين المعاصرين على تعريف الأسلوب بأنّه: **انحرافٌ عن معيار اللغة** (42).

وقد تعددت مصطلحات هذا الخروج وكثرت، فمنها: الانحراف، والعدول، والانزياح، والإزاحة، والكسر (كسر المألوف، وانكسار النمط) ، والانتهاك، والخرق، والغرابة، والتغريب... إلخ(43). وإذا جاز لنا أن نختار (الانزياح) للتعبير عن مصطلح الخروج، فهناك من يعرّفه بأنّه: "استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصوراً استعمالاً يخرج بها عمّا هو معتاد ومألوف؛ بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتصف به من تفرد وإبداع وقوة جذب وأسر"(44). وقد تحدث المتقدمون من علماء البلاغة عن مفهوم هذا المصطلح، وبخاصة في بحثهم المجاز، والاستعارة، والتقديم والتأخير، والحذف، والإيجاز والإطناب، وغيرها(45)، وكان عبد القاهر واحداً من هؤلاء الذين عنوا بهذه الظاهرة فعرض لها، ودرسها، لكن بمصطلحاته هو وبرؤيته هو. وفيما يلي عرضٌ لأهم هذه المصطلحات:

أولاً ـ معنى المعنى

ألمح عبد القاهر لهذا المصطلح في معرض حديثه عن الكناية والمجاز(46)، ثمّ خصّص له فصلاً مستقلاً أوضح فيه مفهومه وأبانه، فقال: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدتَ أن تُخبر عن (زيد) مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيدٌ، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، لكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"(47). وقد مثّل

لما ذكر بـ: كثير الرماد، وطويل النجاد، ونؤوم الضحى. وأعقب قوله هذا بقولٍ آخر صاغ فيه المصطلح وهو: "وإذا قد عرفتَ هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: **المعنى ومعنى المعنى**؛ تعني **بالمعنى**: المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، **وبمعنى المعنى**: أن تعقل من اللفظ معنى، ثمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[48].

فإذا علمنا أنّ المعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ الذي تصل إليه بغير واسطة أدركنا أنّه الأصل، وإذا علمنا أنّ معنى المعنى هو الذي يفضي بك إلى معنى آخر أدركنا أنّه خروجٌ عن الأصل وانحرافٌ عنه، وما من شك في أنّ هذا الخروج وهذا الانحراف إنّما يتم بقصدٍ من الكاتب أو المتكلم لتحقيق وقع جماليّ وفنيّ. وهذا الوقع الجماليّ والفنيّ الذي كان ينشده عبد القاهر، وظلّ يردده في مواضع عدة من دلائل الإعجاز، وقعٌ حرصت الأسلوبية الحديثة على إظهاره وإبرازه والعناية به، فبيوشل (Bushel Ulrich) في كتابه (الأسلوبية اللسانية) يرى أنّ الأسلوب قيمة جمالية وفنية[49]، ويرى أنّ "الأسلوبية اللسانية هدفها الأول هو التوضيح والتفسير ودراسة طبيعة المقتضيات التي تتحول فيها العناصر اللغوية إلى محسنات وأدوات أسلوبية"[50].

ويحرص عبد القاهر على التنويه بأنّ معنى المعنى ليس ضرباً من الترادف، بل هو ناحية جمالية[51] تعتمد على الكناية والمجاز، لذا يقول: "ولا يصلح شيء منه حيث الكلام على ظاهره ، وحيث لا يكون كناية وتمثيل به، ولا استعارة ولا استعانة في الجملة بمعنى على معنى، وتكون الدلالة على الغرض من مجرد اللفظ، فلو أنّ قائلاً قال: رأيتُ الأسدَ، وقال آخر: لقيتُ الليثَ، لم يجز أن يقال في الثاني أنّه صوّر المعنى في غير صورته الأولى، ولا أن يقال: أبرزه في معرض سوى معرضه، ولا شيئاً من هذا الجنس. **وجملة الأمر أنّ صور المعاني لا تتغيّر بنقلها من لفظ إلى لفظ حتى يكون هناك اتساعٌ ومجاز**، وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وُضعت له في اللغة، ولكن يشار بمعانيها إلى معانٍ أخر"[52].

ثانياً ـ الغرابة

الغرابة عند أهل المعاني: "كون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مألوفة الاستعمال"[53]، أو "أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفته إلى أن يُنفّر عنها في كتب

اللغة ... أو يخرج لها وجه جديد"[54]. وقد جعل بعض النقاد العرب الغرابة معياراً لأفضلية الشعر أو رداءته على نحو ما نرى عند حازم القرطاجني (ت 684 هـ) الذي رأى أنّ أفضل الشعر ما قامت غرابته، وأردأ الشعر ما كان خالياً من الغرابة[55]، والحق أنّ هذه الأفضلية أو هذه الرداءة مردّها إلى الأثر النفسي الذي تتركه غرابة اللفظ في النفس، لذا ربط بعض الباحثين المعاصرين[56] بين الغرابة والأثر النفسي الذي تتركه باعتبار أنّ النفس الإنسانية توّاقة دائماً إلى التغيير والتجديد، وتجاوز المكرر والرتيب، والإقبال على ما هو عجيب وطريف وبديع، كما أنّ هذه الغرابة تكشف عن مدى قدرة الشاعر على إكساب لغته الذاتية فرادةً وتميزاً عن لغة الآخرين.

سعى عبد القاهر في نظرية (النظم) إلى إثبات "قدرة المبدع على الإغراب وكسر رتابة المألوف من التراكيب"[57]، وحرص في معالجته لهذا النمط الأسلوبيّ على اللفظة الغريبة في السياق؛ إذ إنّ اللفظة الغريبة المفردة عنده لا قيمة لها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصنع نمطاً أسلوبيّاً مؤثراً ولطيفاً، لذا كان يعالجها في إطار النظم الذي لا ينفصل عن السياق. وإذا ما طلبنا هذا المصطلح لدى عبد القاهر وجدناه في غير موضع، منها على سبيل التمثيل:

1ـ قوله: "ومن بديع الاستعارة ونادرها –إلاّ أنّ جهة **الغرابة** فيه غير جهتها في هذا– قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك يصف فرساً له، وأنّه مؤدب، وأنّه إذا نزل عنه وألقى عنانه في قربوس سرجه، وقف مكانه إلى أن يعود إليه:

عـوّدتُـهُ فيمـا أزور حبائبي — إهمـالَـه وكـذاك كـلُّ مخاطر
وإذا احتبى قـربـوسُـه بعنانه — علكَ الشكيمَ إلى انصراف الزائر

فالغرابة هنا في الشبه نفسه، وفي أن استدرك أنّ هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج كالهيئة من موقع الثوب من ركبة المحتبي. وليست **الغرابة** في قوله: (وسالت بأعناق المطي الأباطح) على هذه الجملة؛ وذلك أنّه لم **يغرب** بأن جعل المطي في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإنّ هذا شبهٌ معروفٌ ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصيته، أفادها بأن جعل (سال) فعلاً لـ (الأباطح)، ثمّ عدّاه بالباء، ثمّ بأن

أدخل الأعناق في البيت، فقال: بأعناق المطي، ولم يقل: بالمطي، ولو قال: سالت المطي بالأباطح لم يكن شيئاً"[58].

إنّ عبد القاهر في هذا النص يوظّف ما تعارف عليه الأسلوبيون اليوم بـ (أسلوبية الانزياح)[59]، فيحاول أن يقيم من المعيار النحوي معياراً آخر ذا قيمة استكشافية للنص، يبرز فيه الخصائص الجمالية من دقةٍ في الوصف ولطافةٍ في التعبير، فلم يعد النحو عنده مجرد قوالب شكلية، بل أضحى قوالب فنية تُوظّف في خدمة الأسلوب.

2ـ وقال في موضع آخر: "وممّا أتى في هذا الباب مأتىً أعجب ممّا مضى كله قول زياد الأعجم:

وإنّا وما تُلقِي لَنا إنْ هجَوْتَنا لَكالبحر مَهْما يُلْقَ في البَحْرِ يَغْرقِ

وإنّما كان أعجب؛ لأنّ عمله أدق، وطريقته أغمض، ووجه المشابكة فيه **أغرب**"[60].

فالغرابة[61] كما تظهر عند عبد القاهر في هذين المثالين: خروجٌ عن المعيار، ولها أثر في النفس، وفيها نوعٌ من الطرافة والتجديد، كما تضفي على النتاج الأدبي صفتي الإبداع والجمال.

وقبل أن ننهي حديثنا في الغرابة، يحسن بنا أن نذكر رأياً لافتاً ذكره أحمد درويش في كتابه (دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث)، حيث قال: "ومن العناصر التي يمكن أن يتوهم أنّ لها علاقة بفصاحة النص أو إعجازه الغرابة، **ولا يمكن أن تكون الغرابة سبباً للإعجاز؛** لأنّ القرآن لا يكثر من الغريب، فلقد تمر السورة الطويلة ليس فيها كلمة غريبة على الآذان، والكلمات التي عُدّت من هذا النوع في القرآن محدودة جداً، ولو كان الأمر أمر تحدٍّ بالغريب، لكان من الممكن أن يدخل العرب في سباق من هذا اللون، فالكلمات الغريبة المهجورة يمكن البحث عنها وتكلفها"[62]. ولا خلاف مع الباحث درويش في هذا الأمر، بيد أنّ هدف الأسلوب ليس الغريب في حد ذاته، بل الهدف كيف تُوظّف الألفاظ الغريبة في النص لتخلق نسقاً مغايراً غير مألوف يُكسب الإنتاج الفني إبداعاً وجمالاً وألقاً ولطافة، وهذا ما كان عبد القاهر يصنعه عندما كان يحلّل النصوص، ويتعقب مواطن الدقة فيها.

ثالثاً ـ العدول

العدول من مصطلحات الصرفيين، وهو عندهم: "خروج الاسم عن صيغته الأصلية تحقيقاً أو تقديراً إلى صيغة أخرى ... فُسِّر بالخروج دون الإخراج، والمراد بالخروج: الخروج الحاصل بسبب الإخراج؛ أي: كونه مخرجاً"[63].

قال محمد عبد المطلب: "وإذا كان النحاة واللغويون قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي، فإنّ البلاغيين ساروا في اتجاه آخر من حيث أقاموا مباحثهم على أساس انتهاك هذه المثالية، **والعدول** عنها في الأداء الفني ... ومن هذا المنطلق دارت مباحث المعاني في كثير من جوانبها حول **العدول** عن النمط المألوف على حسب مفهوم أصحاب اللغة وتقاليدهم في صناعة الكلام، وهذا **العدول** يمثل الطاقات الإيحائية في الأسلوب"[64].

إذن (العدول) مصطلح قديم، لقي مرتعاً خصباً لدى البلاغيين من علماء العربية في وقتٍ انصرف عنه أهل صناعة النحو لأنّ فيه تعدّياً وانتهاكاً للمباحث التي دأبوا على ضبطها وتقعيدها، ولقد ظفر أرباب البلاغة حين احتفوا بهذه الظاهرة الأسلوبية التي تفجّر الطاقات الكامنة في الكلام.

ورد هذا المصطلح عند عبد القاهر مقروناً في موضع بالأسلوب، إذ قال: "فلم تستطع ذلك إلا بعد أن **عدلت عن أسلوب إلى أسلوب**، أو دخلتَ في ضرب من المجاز، أو أخذت في نوع من الاتساع"[65]. وعبد القاهر في هذا النص عندما يوصي بالابتعاد عن استعمال اللغة استعمالاً مألوفاً تحقيقاً لمقاصد الجمال والاتساع في الكلام، إنّما يكون متقدماً على كثيرٍ من الأسلوبيين الغربيين الذين رأوا في العدول قيمة لسانيةً فنية، ومنهم فونتاناي (Fontenay) الذي عزا "الظاهرة الأسلوبية إلى عبقرية اللغة، إذ تسمح بالابتعاد عن الاستعمال المألوف، فتوقع في نظام اللغة اضطراباً يصبح هو نفسه انتظاماً جديداً"[66].

وممّا يرتبط بالمصطلحات الثلاثة (معنى المعنى ، والغرابة ، والعدول) المعيار؛ إذ يرتبط الخروج عن المألوف أو الانزياح **بوجود معيار** يتم الانحراف عنه، وقد شاعت في الدراسات الأسلوبية عبارة فاليري (Paul Valéry) التي رأى فيها أنّ الأسلوب في جوهره

انحراف عن قاعدة ما، وأنّه من الضرورة بمكان أن يتعرف الباحث أولاً القاعدة حتى يتمكن من اكتشاف الانحرافات المتفرعة عنها[67]. ومن المعايير التي ذكرتها الدراسات الأسلوبية المعاصرة: الاستعمال الشائع، واللغة الجارية، والسياق، والقارئ العمدة، ونظرية الإعلام، وغيرها[68].

وهذا المعيار تنبّه إليه عبد القاهر أيضاً، إذ أطلق على المعيار مصطلح **(أصل المعنى)** فقال: "ألا ترى أنْ ليست المزيّة التي تجدها لقولك: كأنّ زيداً الأسدُ، على قولك: زيدٌ كالأسد شيئاً خارجاً عن التشبيه الذي هو **أصل المعنى** ..."[69]. وثمة من يضيف مصطلحات أخرى وردت عند النقاد العرب، منها: **أصل الوضع، والأصل**[70].

إنّ مجمل ما يمكن أن يقال في هذا المقام عن: معنى المعنى والغرابة والعدول أنّها ضروبٌ من الانزياح أو الانحراف؛ ففيها خروجٌ عن الأصل، وفيها قصدٌ واختيار، وفيها قيمةٌ لغوية وجمالية، وهذه الأمور مجتمعة ترقى بها إلى رتبة الحدث الأسلوبي.

المظهر الرابع: السياق

حظي السياق بعناية كبيرة من لدن الباحثين العرب والغربيين في السنوات الأخيرة، وقد اتفق جميعهم على دوره المهم في تحديد معاني الكلمات والجمل، فالكلمة ـ بحسب ما يرون ـ هي الموجودة في سياق؛ بمعنى أنّه لا يتحدد معناها تحديداً دقيقاً إلا من خلاله، وهي لا تدل مستقلة بنفسها على شيء. قال اللساني الفرنسي ميللي (Meillet Antoine): "إنّ الكلمة الحقيقية هي الكلمة في السياق"[71]. وقال اللساني الإنجليزي أولمان (Stephen Ullmann): " السياق وحده هو الذي يستطيع أن يبيّن لنا ما إذا كانت الكلمة (قريب) مثلاً تعني قرابة الرحم أو القرب في المسافة"[72]. ويرى كمال بشر أنّ "الكلمة منعزلة ضربٌ من العبث، فلا بدّ من سياق يبرز دلالتها" [73]. وتولي الأسلوبيات الحديثة السياق اهتماماً ملحوظاً وعنايةً بالغة، بل إنّ من فروع الأسلوبية ما تخصص في هذا الأمر، على نحو ما نرى في (الأسلوبية السياقية) التي يعدّ ريفاتير (Riffaterre Michael) ممثلها الألمع[74]، ويُعنى هذا الفرع بتتبع دور السياق في الكشف عن لغة منتج النص.

تعد العناية بالسياق (Context) واحدةً من أهم الخصائص التي وُسمت بها مدرسة لندن اللغوية، وقد بدأت هذه العناية عند رائد المدرسة فيرث (Firth)، الذي جعل السياق تفسيراً لكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة ووظيفتها التواصلية لدى كل من المتحدث والمتلقي. وهو عنده نوعان: السياق اللغوي (linguistic context) وسياق الحال (context of situation)، كما يرى فيرث أن الأول منهما يعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص، وينفي عنها المعاني الأخرى التي يمكن أن تؤديها في حديث آخر أو في نص آخر[75]. هذا، وقد اتسعت مجالات البحث في السياق بعد فيرث على يد تلامذته وفي مقدمتهم أولمان (Ullmann) الذي نقل عن أستاذه ما يلي: "وضعت لنا نظرية السياق مقاييس لشرح الكلمات وتوضيحها عن طريق التمسك بما أسماه الأستاذ فيرث (ترتيب الحقائق في سلسلة من السياقات) أي: سياقات كل واحد منها ينطوي تحت سياق آخر، ولكل واحد منها وظيفة بنفسه، وهو عنصر في سياق أكبر، وفي كل السياقات الأخرى، وله مكانه الخاص فيما يمكن أن نسميه سياق الثقافة"[76]. ويردف أولمان: "وكلمة السياق Context قد استعملت حديثاً في عدة معانٍ مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يهم مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي؛ أي : النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم بأوسع معاني هذه العبارة. إنّ السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل القطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل بوجهٍ من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تُنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن"[77].

فإذا ما قابلنا هذه العناية الحديثة بما ورد عند عبد القاهر، وجدنا أنّه يولي السياق أهميةً في النظم؛ فبعد أن يُواءم بين اللفظ والمعنى يأتي دور **العلاقات السياقية**، وعنها قال: "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس"[78]. وربط في موضع آخر بين معاني النحو والسياق فقال: "واعلم أنّ ممّا هو أصلٌ في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها

في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك"(79).

إنّ ما ذكره عبد القاهر يشي بأنّ النظم سياق تحكمه معاني النحو، وبتعبير آخر: **إنّ الأسلوب سياق تحكمه العلاقات النحوية**، وهذا ما تحاول الدراسات الحديثة اليوم التنظير له، والدعوة إلى الأخذ به وتبنيه. وعادة ما تقسم هذه الدراسات السياق على قسمين: السياق اللغوي وغير اللغوي (الموقف)، غير أنّ ما يعنينا في هذا المقام السياق اللغوي باعتباره مظهراً من المظاهر الأسلوبية في نظرية النظم، لذا سيسلّط البحث بعض الضوء عليه.

عرّف بعض المعجميين المعاصرين السياق اللغوي (linguistic context) بقوله: "البيئة اللغوية التي تحيط بصوت، أو فونيم، أو مورفيم، أو كلمة، أو عبارة، أو جملة"(80)، وهو حدث كلامي مسبوق بتصور ذهني يتم على أساسهما بناء الجمل والعبارات المنطوقة، وهو قائمٌ لدى المدارس اللغوية الحديثة "على النسقية التي تلتئم بين الكلمات التي تمثل كل واحدة منها موقعاً في الجملة، وهذا يعني أنّ السياق أكثر من مجرد سلسلة كلامية Sequence، إنّها سلسلة تفرضها المواقع التي تشغلها هذه الكلمات، والوظائف العلائقية فيما بينها"(81).

إنّ هذا السياق اللغوي له نظير عند الجرجاني في النظم، قال عبد القاهر: "فلو كانت الكلمة إذا حسنتْ من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال، ولكانت إمّا أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً، ولم تر قولاً يضطرب على قائله حتى لا يدري كيف يعبّر، وكيف يُورد ويصدّر"(82). وقال في موضع آخر: "فليس من عاقل يفتح عين قلبه، إلا وهو يعلم ضرورة أنّ المعنى في ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض لا أن تنطبق بعضها في إثر بعض من غير أن يكون بينها تعلّق"(83).

إن كلام عبد القاهر هذا صريحٌ في أنّ قيمة الكلمة ومزيتها تتضح بعلاقاتها مع أخواتها، وهذه العلاقات يجب أن تكون محكومةً بقواعد وأصول ومناهج محددة، يُضاف إلى ذلك ضرورة العناية بالمعنى، ثمّ أنّ هذه الكلمات وما تحملها من معانٍ لا بدّ لها من سياق تضم فيه، وأنّها بدون سياق ستكون أشبه بكلام بلا روح؛ الأمر الذي يجعله متقدماً على علماء المدارس اللغوية الحديثة - والأسلوبيين من بعدهم - في هذا المضمار.

إنّ مجمل ما يمكن أن يقال هنا: إنّ عبد القاهر نظر إلى الكلمة بعدّها لبنةً في بناء لغوي، وهذا البناء محكومٌ بعلاقات نحوية ودلالية، وأنّ السياق يعمل على تحديد المعنى وتوضيح المقصود.

خاتمة البحث

حاول هذا البحث أن يرصد عدداً من المظاهر الأسلوبية عند علّامة العربية عبدالقاهر الجرجاني في نظريته اللغوية (النظم)، وأوجه التقارب بينهما وبين اللسانيات الحديثة، ليخرج في نهايته بالنتائج التالية:

- فرّق عبد القاهر في النظم بين اللغة والكلام؛ فاللغة عنده: ألفاظٌ وقواعد يشترك فيها العام والخاص، بينما الكلام: عنصرٌ فرديٌّ يعتمد على الاختيار والتصرف، ويصدر عن وعي واختيار، ويميّز بين إنتاج أديبٍ وآخر بالاعتماد على إمكانات النحو، وهذا الكلام هو مقياس الجودة.
- أولى عبد القاهر الناحية الفردية عناية في نظمه، وحرص على تتبع إنتاج الفرد، وإخضاع لغته لأنواع من التحليلات التي تعين الناقد في مجال التفسير، وقد غدت هذه الفكرة التي طرحها الجرجاني قبل قرون الاتجاه السائد في علم الأسلوب اليوم.
- في النظم إشارات واضحة تدل على مراعاة البعد النفسي، والأثر الذي تتركه نفسية المتكلم في الكلام. فالنظم عند عبد القاهر لا يتحقق إلا بترتيب المعاني في النفس، لذا عندما تناول الحذف والذكر والتعريف والتنكير، ووقف عند

القصر، وناقش التقرير والاستفهام، أخذ يستعرض الشواهد ويحللها في بعديها النفسي والاجتماعي، ويرى المبدع والمتلقي، ويتتبع خيوط التأثير.

- النظم اتجاهٌ من اتجاهات الأسلوب يستغل الإمكانات النحوية، وقد حاول عبدالقاهر تحويل القوانين النحوية المعيارية إلى وظائف معنوية تظهر من خلالها علاقات الكلم بعضها ببعض، وسعى إلى تبيّن الفروق بين أساليب مختلفة في الكلام قد تبدو من منظور النحو المعياري أنّها متساوية.
- معاني النحو ليست الإعراب فقط، وليست قوانين مطلقة ثابتة، بل هي وسائل لفهم الأسلوب، تتطلب من الدارس فهماً متكاملاً للسياق ومعانيه، وربطاً للوظائف النحوية بالأغراض والأفكار. بعبارة أخرى: هي توجيهٌ إلى التحليل الداخلي للجملة والعبارة بديلاً عن التقسيم الشكلي الخارجي الإعرابي، مع ربط العمل النحوي بالبحث عن المعاني والسياقات تطبيقاً، وهي تمثّل طريقاً جديدةً في البحث النحوي، وكان من حقها أن تكون نظرية خاصة بالمباحث النحوية العربية، وأن تسبق بعض النظريات النحوية الحديثة.
- لعبد القاهر عددٌ من المصطلحات الدالة على الخروج عن المعيار، منها: معنى المعنى، والغرابة، والعدول، وهي ضروبٌ من الانزياح؛ لأنّ فيها خروجاً عن الأصل، وقصداً واختياراً، وقيمةً لغوية وجمالية، وهذه الأمور مجتمعة ترقى بها إلى رتبة الحدث الأسلوبي.
- النظم عند عبد القاهر سياقٌ تحكمه العلاقات النحوية، وبتعبير آخر: إنّ الأسلوب سياق تحكمه معاني النحو، كما أنّ أنّ قيمة الكلمة ومزيتها تتضح بعلاقاتها مع أخواتها، وهذه العلاقات يجب أن تكون محكومةً بقواعد وأصول ومناهج محددة.

وتأسيساً على ما سبق يحقّ **لنا أن نصف نظم عبد القاهر – وبكل اطمئنان – بالنظم الوصفي لا المعياري؛ ذلك أنّه يعتمد الاستقراء والوصف، ويبتعد عن المعيار المطلق الثابت.**

الهوامش والمراجع

(1) استيتية ، سمير شريف : **منازل الرؤية . . منهج تكاملي في قراءة النص** ، ط 1 ، عمّان : دار وائل للنشر ، 2003م ، ص 125 .

(2) الجندي ، دوريش : **نظرية عبد القاهر في النظم** ، ط 1 ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، 1960م ، ص 122 .

(3) حسّان ، تمّام : **اللغة العربية . . . معناها ومبناها** ، ط 1 ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1979م ، ص 18 .

(4) Merleau - Ponty, Maurice: Pheno monologie de la percep. P. 212-213, Yule, George: **The Study of Language,** Cambridge : Cambridge University Press, 2006, p. 212-213.

(5) ينظر : المسدي ، عبد السلام : **الأسلوبية والأسلوب** ، ط 3 ، تونس : الدار العربية للكتاب ، د .ت ، ص 5 ، وجبر ، محمد عبد الله : **الأسلوب والنحو . . دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظاهرات النحوية** ، ط 1 ، الإسكندرية : دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ، 1998 م ، ص 6 .

(6) الجرجاني ، عبد القاهر : **دلائل الإعجاز** ، تحقيق : محمد رضوان الداية وفايز الداية ، ط 1 ، دمشق : دار الفكر ، 2007م ، ص 430 . والفكرة ذاتها مضمنة في حديثه عن معنى الفصاحة والبلاغة ، ص 87 .

(7) عبد المطلب ، محمد : **البلاغة والأسلوبية** ، ط 1 ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984م ، ص 23 . وتنظر الفكرة ذاتها في : خليل ، إبراهيم : **الأسلوبية ونظرية النص** ، ط 1 ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1997م ، ص 34 .

(8) ينظر : المسدي : الأسلوبية والأسلوب ، ص 38– 39 . وعيّاد ، شكري محمد : **مدخل إلى علم الأسلوب** ، ط 1 ، الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، 1982م ، ص 28 . وفضل ، صلاح : **علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته** ، ط 1 ، القاهرة : دار الشروق ، 1998 م ، ص 135 .

(9) ينظر : سوسير ، فيرديناند : **فصول في علم اللغة العام** ، ترجمة : أحمد نعيم الكراعين ، ط 3 ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، 1982م ، ص 38 : الأسلوبية ونظرية النص ، ص 36 . وعيّاد : مدخل إلى علم الأسلوب ، ص 26 .

(10) ينظر : عياشي ، منذر : **مقالات في الأسلوبية** ، ط 1 ، دمشق : منشورات اتحاد الكتّاب العرب ، 1990م ، ص 23 .

(11) دلائل الإعجاز ، ص 52 .

(12) دلائل الإعجاز ، ص 56 . وتنظر كذلك الصفحات 377 – 381 .

(13) الأسلوبية ونظرية النص ، ص 35 – 36 ، والفكرة في الدلائل ، ص 114 .

(14) جيرو ، بيير : **الأسلوبية** ، ترجمة : منذر عياشي ، ط 2 ، حلب : مركز الإنماء الحضاري (دار الحاسوب للطباعة) ، 1994 م ، ص 91 .

(15) علم الأسلوب ، ص 135 .

(16) دلائل الإعجاز ، ص 129 .

(17) درويش ، أحمد : **دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث** ، القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، 2000م ، ص 36 . نقلاً عن : La Psychologic des Styles, Paris, 1959

(18) منازل الرؤية ، ص 12 .

(19) علم الأسلوب ، ص 138 .

(20) دلائل الإعجاز ، ص 97 .

(21) دلائل الإعجاز ، ص 100 .

(22) دلائل الإعجاز ، ص 292 . وينظر كذلك : ص 102 .

(23) مقدمة المحققين ، ص 27 .

(24) عيد ، رجاء : **البحث الأسلوبي معاصرة وتراث** ، الإسكندرية : منشأة المعارف ، 1993م ، ص 182 .

(25) Halliday, M.A.K. : **An Introduction to Functional Grammar**, 2nd ed., London: Arnold, 1994.

(26) Berry, M.: **Introduction to Systemic Linguistic: 1 Structure and Systems.** London: Batsford, 1975.

(27) مصلوح ، سعد : **الأسلوب . . دراسة لغوية إحصائية** ، ط 3 ، القاهرة : عالم الكتب ، 1992 م ، ص 47 .

(28) جيرو : الأسلوبية ، ص 103 .

(29) ينظر : البلاغة والأسلوبية ، ص 147 .

(30) دلائل الإعجاز ، ص 122 – 123 .

(31) دلائل الإعجاز ، ص 123 .

(32) الضامن : حاتم صالح : **نظرية النظم . . . تاريخ وتطور** ، بغداد : وزارة الثقافة والإعلام ، 1979م ، ص 49 .

(33) منازل الرؤية ، ص 14 .

(34) ينظر : منازل الرؤية ، ص 18 – 19 .

(35) الأسلوب والنحو ، ص 7 .

(36) دلائل الإعجاز ، ص 377 .

(37) دلائل الإعجاز ، ص 380 – 381 .

(38) منازل الرؤية ، ص 21 – 22 .

(39) الداية : **مقدمة المحققين** ، ص 19 . من جهة ثانية حاولت إبتسام أحمد حمدان أن تلخّص جهد عبدالقاهر في هذا الإطار فقالت : " إنّ عبد القاهر لم يجدد النحو ، وإنّما أعاد الحياة إلى الدرس النحوي حين سلّط الأضواء على أبعاد الدرس النحوي وهي :

- معاني النحو : أي معاني البنية الشكلية للغة ، التي على أساسها يشكّل المتكلم جملة البنى الشكلية التي تحدد المعنى النحوي وليس المعنى المعجمي .
- النظم والعلاقات السياقية : حيث يتبع الإعراب الترتيب الخاص بالكلمات .
- البنية الكلية المرتبطة فيما بينها ، لتشكل كلّاً واحداً بطريقة الارتباط والربط" . حمدان ، إبتسام أحمد : "أسس نحوية ولغوية في التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني" ، **مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها** ، جامعة تشرين ، العدد 3 ، 2010 م ، ص 30 – 31 .

(40) الأسلوبية والأسلوب ، ص 102 .

(41) الأسلوبية والأسلوب ، ص 102 .

(42) ينظر : عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، ص 147 . وعياشي : مقالات في الأسلوبية ، ص 47 . وربابعة ، موسى سامح : **الأسلوبية . . . مفاهيمها وتجلياتها** ، ط 1 ، إربد : دار الكندي ، 2003م ، ص 44 .

(43) ينظر : ويس ، أحمد محمد : **الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية** ، ط 1 ، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 2005م ، ص 29 – 70 .

(44) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ، ص 7 .

(45) الأسلوبية . . . مفاهيمها وتجلياتها ، ص47 .

(46) الجرجاني ، **دلائل الإعجاز** ، ص 110 .

(47) دلائل الإعجاز ، ص 268 .

(48) دلائل الإعجاز ، ص 269 .

(49) ينظر : بيوشل ، أولريش : "الأسلوبية اللسانية" ، ترجمة : خالد محمود جمعة ، **مجلة نوافذ** ، السعودية ، العدد 13 ، 2000م ، ص 123 .

(50) "الأسلوبية اللسانية" ، ص 112 – 113 .

(51) " قال بعض أهل المعاني : الكلام الذي يوصف بالبلاغة هو الذي يدل بلفظه على معناه اللغوي أو العرفي أو الشرعي ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية على المقصود الذي يريد المتكلم إثباته أو نفيه ، فهناك ألفاظ ومعان أول ، ومعان ثوان ، فالمعاني الأول هي مدلولات التراكيب والألفاظ التي تسمى في علم النحو : أصل المعنى ، والمعاني الثواني : الأغراض التي يساق لها الكلام" . التهانوي ، محمد علي : **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم** ، تقديم وتحقيق : رفيق العجم وآخرين ، بيروت : مكتبة لبنان ، 1996 م ، ص 1600 .

(52) دلائل الإعجاز ، ص 270 .

(53) الجرجاني ، علي بن محمد : **التعريفات** ، تحقيق : عبد المنعم الحفني ، القاهرة : دار الرشاد ، 1991 م ، ص 183 .

(54) مطلوب ، أحمد : **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها** ، أحمد مطلوب ، ط 2 ، بيروت : مكتبة لبنان ، 1996 ، ص 537 .

(55) ينظر : القرطاجني ، حازم : **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ، ط 3 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1986 م ، ص 71 – 72 .

(56) ينظر : ربابعة ، موسى : الأسلوبية . . . مفاهيمها وتجلياتها ، ص49 . والحديث عن الغرابة قديم ، فأرسطو يتحدث عنها وعن أثرها ووقعها في كتابه (فن الخطابة) . ينظر : الكتاب المذكور بتحقيق : عبد الرحمن بدوي ، ط 2 ، بغداد : دار الشؤون الثقافية ، 1986 ، ص 196 .

(57) عبيدات ، شهد أحمد : "الغرابة في النقد العربي القديم" ، **رسالة ماجستير** ، الأردن ، جامعة اليرموك ، 2002 م ، ص 29 .

(58) دلائل الإعجاز ، ص 117 – 118 .

(59) ذكر هنريش بليت في معرض حديثه عن أسلوبية الانزياح : " أنْ تقيم على أساس المعيار النحوي– الذي هو على العموم اللغة المعيار standard أو اليومية – نحواً ثانياً مكوناً من صور الانزياح ، ويمكن أن تكون هذه الصور من طبيعتين : فهي خرق للمعيار النحوي من جهة ، وتقييد أو تضييق لهذا المعيار بالاستعانة بقواعد إضافية من جهة ثانية . . . وبرغم كل الاعتراضات تحتفظ أسلوبية الانزياح بقيمة استكشافية في توضيح الخصائص الأسلوبية " . بليت ، هنريش : **البلاغة والأسلوبية**

(**نحو نموذج سيميائي لتحليل النص**) ، ترجمة : محمد العمري ، ط 2 ، المغرب : دار إفريقيا الشرق ، 1999 م ، ص 58 – 59 .

(60) دلائل الإعجاز ، ص 135 – 136 .

(61) حظي هذا المصطلح بعناية الكثير من الباحثين واهتمامهم ، كما تتبعه بعض الدارسين في مراحل مختلفة بدءاً من أرسطو ومروراً بما يليه من مراحل . ينظر تفصيل ذلك في : الزعبي ، زياد صالح : **المثاقفة وتحولات المصطلح . . . دراسة في المصطلح النقدي عند العرب** ، ط 1 ، عمّان : وزارة الثقافة ، 2007م ، ضمن بحث بعنوان : **التعجيب عند ابن سينا** ، ص 129 – 160 .

(62) دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، ص 100 .

(63) كشاف اصطلاحات الفنون ، ص 1169 .

(64) البلاغة والأسلوبية ، ص 199 .

(65) دلائل الإعجاز ، ص106 .

(66) الأسلوبية والأسلوب ، ص 101 .

(67) ينظر : فضل ، صلاح : علم الأسلوب ، ص 208 .

(68) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ، ص129 – 151 .

(69) دلائل الإعجاز ، ص 270 .

(70) ينظر : الأسلوبية . . . مفاهيمها وتجلياتها ، ص 54 .

(71) حسام الدين ، كريم زكي : **أصول تراثية في اللسانيات الحديثة** ، ط 3 ، القاهرة : الرشاد للطباعة ، 2001م ، ص 48 .

(72) أولمان ، ستيفن : **دور الكلمة في اللغة** ، ترجمة : كمال بشر ، ط 12 ، القاهرة : دار غريب للطباعة ، 1997 م ، ص 71 .

(73) بشر ، كمال : **دراسات في علم اللغة** (القسم الثاني) ، القاهرة : دار المعارف ، 1969م ، ص 153 .

(74) البلاغة والأسلوبية ، ص 60 .

(75) Firth, J.R.: **Papers in Linguistics**. London: Longman, ,1975, p. 195.

(76) تنظر تفصيلات ذلك في : أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، ص 68 وما بعدها .

(77) دور الكلمة في اللغة ، ص 68 .

(78) دلائل الإعجاز ، ص 101 .

(79) دلائل الإعجاز ، ص 133 .

(80) الخولي ، محمد علي : **معجم علم اللغة النظري** ، ط 1 ، بيروت : مكتبة لبنان ، 1982م ، ص 156 .

(81) استيتية ، سمير شريف : **اللسانيات . . . المجال والوظيفة والمنهج** ، ط 1 ، إربد : عالم الكتب الحديث ، 2005م ،ص 204-205 .

(82) دلائل الإعجاز ، ص 96 .

(83) دلائل الإعجاز ، ص 428 .